جهود أشاعرة القطر الجزائري في الدفاع عن العقيدة الإسلامية قديما وحديثا

د. يوسي الهواري
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
جامعة وهران – الجزائر

1. مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أما بعد: إن المكتبة الإسلامية تزخر بعديد الكتب والمصنفات، في علم أصول الدين على منهج الأشاعرة، والملاحظ في فهارسها أن علماء الجزائر، كان لهم حظهم الوافر في إثبات العقيدة الإسلامية، والدفاع عنها، وتفنيد شبهات المخالفين، ولعل أبرزهم الشيخ محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة 895ه، الذي انتشرت مؤلفاته شرقا وغربا، وأضحت مرجع كل من أراد التأليف في أصول الدين.

لقد اختار علماء القطر الجزائري خاصة وعلماء المغرب العربي عامة، طريقة الإمام أبي الحسن الشعري، في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، إيمانا منهم أن الشيخ رحمه الله لم يبدع رأيا ولم ينشا مذهبا، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقا وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدي به في ذلك، السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعريا[1]،ومن واقع سلفية عقيدة أبي الحسن الأشعري، ومن جاء بعده من أصحابه، عمد مالكية المغرب العربي إلى مذهب السادة الأشاعرة، واتخذوه مهيعا لهم، في التعاطي مع مسائل العقيدة الإسلامية، قصد الدفاع عنها وترسيخها في نفوس العامة، وتحويلها إلى واقع عملي في حياة الناس.

ولبيان جهود أشاعرة القطر الجزائري تأتي هذه المقالة ، لمعالجة العناصر الآتية:

أولا: أصالة المذهب الأشعري بالقطر الجزائري (ببلاد المغرب العربي).

ثانيا: التعريف بأعلام الجزائر الأشاعرة قديما وجديثا.

ثالثا: خصوصيات المذهب الأشعري بالقطر الجزائري.

2. أولا: أصالة المذهب الأشعري بالقطر الجزائري.

لقد حظي المغرب العربي، باهتمام المسلمين الفاتحين من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في وقت مبكر جدا، يتجلى هذا الاهتمام، في حرص الفاتحين الأوائل على نشر راية الإسلام، عبر ربوع شمال إفريقية، علاوة على سعيهم الحثيث على تمكين هذا الدين في نفوس قبائل البربر، ومما لا شك فيه أن عقيدة الإسلام بصفائها، وسماحة أحكامها هيمنت على القلوب، وفعلت فعلتها، في أولئك الذين كانوا يدينون بعقائد باطلة من مسيحية أو يهودية أو وثنية، فأصبحوا بحمد الله تعالى ومنته حماة الدين، يحملون لوائه وينشرون عدالته وسماحته.

ومما يجب التنبيه عليه، ما كان لبعثة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من أثر في ترسيخ الاتجاه السني في نفوس العامة من الناس، فقد كان لهذه البعثة المكونة من خيرة فقهاء التابعين، الأثر العميق في تصحيح تدين العامة، وإقبال المسلمين الجدد على تعاليم هذا الدين عن وعي وقناعة، يقول الفاضل بن عاشور واصفا حال أعضاء هذه البعثة:" اختط كل منهم دارا لسكناه، وبنى مسجدا بحدائها لعبادته ومجالسه، واتخذ بقربه كتابا لتحفيظ القرآن، وتلقين مبادئ العربية، لصغار أطفال البلد، وأشاعوا الرشد وعلموا الحلال والحرام، وحرصوا على الأمن والتآخي والمساواة، فكان إسلام البربر نهائيا، من آثار هذه البعثة الكريمة" [(2)].

بفضل هؤلاء التابعين، ظل المغرب العربي متمسكا بالاتجاه السني، أصولا وفروعا، وقد زاد هذا الاتجاه عمقا، هيمنة المذهب المالكي على ربوع المغرب العربي والأندلس، ولا يخفى على أي أحد مكانة الإمام مالك بن أنس، فهو وارث علم مدرسة الحجاز، قال القاضي عياض المالكي – رحمه الله –:" وأما إفريقية وما ورائها فقد كان الغالب عليهم في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل عليهم علي بن زياد وغيره بمذهب مالك، وبقي هذا المذهب يفشو وينتشر، إلى أن جاء الإمام سحنون فغلب في أيامه، وفض حلق المخالفين، واستقر المذهب بعده في أصحابه، فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا. [(3)]"

وكما انتشر مذهب مالك في الفروع بالمغرب العربي انتشر مذهبه في العقيدة،

وهو مذهب سلف هذه الأمة، وما إن ظهر منهج الأشعري في تقرير هذا المذهب، سرى منهجه وبكل هدوء إلى مالكية المغرب العربي، و في وقت مبكر جدا، إذ لم يرى فيه هؤلاء ما يوجب رده، فهو بحسبهم امتداد لمذهب سلف هذه الأمة، امتداد اتخذ من الأدلة العقلية وسيلة لتأييد النصوص، فمذهب الأشاعرة ليس مذهبا دخيلا على أهل المغرب العربي، بل هو امتداد طبيعي وتطور حتمي للاتجاه السني المتفشي بالمغرب العربي، بدليل أن المذهب الأشعري لم يجد من المقاومة والاعتراض ما وجدته باقي المذاهب الفكرية الأخرى، بل عد المذهب الأشعري صنو المذهب المالكي.

لكن وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة، وهي أصالة المذهب الأشعري عند المغاربة، واعتباره امتدادا لمذهب السلف، يأبي البعض إلا الإصرار على كون المذهب الأشعري مذهبا دخيلا على أهل المغرب العربي، وأن المغاربة كانوا منذ زمن الفتح الإسلامي على طريقة السلف، وحجتهم في ذلك مسلك التأويل الذي عرف به الأشاعرة، في مقابل مسلك التفويض الذي عرف به السلف، وفات هؤلاء أن تفويض السلف تأويل إجمالي، وتأويل الأشاعرة تأويل تفصيلي، وكلاهما قولان معتمدان عند السادة الأشاعرة[4].

وهذا الاعتقاد مع الأسف الشديد، جار عند البعض من من أرخوا للمغرب الأوسط بصفة خاصة، والمغرب العربي بصفة عامة، أن بلاد المغرب العربي وما يليها من بلاد الأندلس، ظلت على نفس خطى السلف في الاعتقاد، إلى أن جاءت دولة الموحدين التي عملت على نشر المذهب الأشعري.

قال الذهبي: "قال اليسع بن حزم: سمى ابن تومرت المرابطين بالمجسمين، وكان أهل المغرب يدينون بتتريه الله تعالى، عما لا يليق بجلاله تعالى، مع تركهم الخوض عما تقصر العقول عن فهمه"[5].

وقال عبد الله كنون –وهو يتحدث عن بدء أمر الموحدين: "وكان ابن تومرت أكثر ما يدعو إلى الأخذ بمذهب الأشاعرة في الاعتقاد، وخاصة في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث، الذي كان المغاربة لا يجنحون إليه أخذا بمذهب السلف في ترك التأويل، وإقرار المتشابهات كما جاءت، مشددا النكير عليهم في ذلك وربما رماهم بالتجسيم"[6].

ويقول إبراهيم التهامي في كتابه مؤرخا للأشعرية:" لقد ظل المغرب الإسلامي على مذهب السلف، في الاعتقاد بظواهر النصوص، والصفات الواردة فيها من غير تأويل، ولا صرف لها عن مدلولها اللغوي، مع التتريه للخالق عز وجل وذاته العلية، عن أن تشبه الذوات وتتصف بصفات المخلوقين، وكذا القول في الوجه واليدين والعين والترول والمجيء والضحك، وغيرها مما ورد إطلاقه على الله سبحانه وتعالى، في الكتاب والسنة، فإهم يمرونه على ظاهره، ولا يؤولونه بالذات والقدرة، فرارا من الافتئات على الشارع الذي عبر بذلك، ولكنهم يعتقدون التتريه ومخالفته تعالى للحوادث، وظل الأمر على ذلك، إلى عهد ابن تومرت ورجوعه من رحلته المشرقية، حيث عمل على تحويل الناس عن مذهب السلف إلى المذهب الأشعري، وقد تحدث غير واحد من علماء المغرب والمشرق، ممن تناول هذه المرحلة بالدراسة والبحث، أو تناول شخصية ابن تومرت، تحدثوا عن دور ابن تومرت الكبير، في تحويل المغرب إلى مناهج المتكلمين من الأشاعرة في الاعتقاد(7).

وقال المؤرخ الجزائري المبارك الميلي:" وكان أهل المغرب سلفيين، حتى رحل ابن تومرت عن المشرق، وعزم على إحداث انقلاب بالمغرب سياسي علمي ديني، فأخذ بطرق الأشعري ونصرها، وسمى المرابطين السلفيين مجسمين، وتم انقلابه على يد عبد المومن، فتم انتصار الأشاعرة بالمغرب، واحتجبت السلفية بسقوط دولة صناهجة" (8).

حاصل كلام هؤلاء وغيرهم: أن دولة المرابطين دولة قائمة على مذهب السلف، القاضي بالأخذ بظاهر النصوص، وأن دولة الموحدين دولة قائمة على مذهب الاشاعرة، إذ لولا المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، ما كان لهذا المذهب أن يكتسح المغرب العربي، القائم على مسلك التأويل، وهو مذهب مخالف لمذهب السلف، ولعمري ثمت من الشواهد التاريخية، ما ينسف هذه الفكرة الخاطئة جملة وتفصيلا، ويؤكد بما لا يدع مجالا للشك:

– أن المذهب الأشعري كان موجودا قبل الدولة الموحدية، أي زمن الدولة المرابطية.

– أن المرابطين لم يكونوا مجسمة، وأن دعوى التجسيم، هي دعوى أطلقها خصومهم السياسيون وهم الموحدون، فالمرابطون كانوا مفوضة، والتفويض لا يناقض مذهب الأشاعرة، لأن مبناه التأويل الإجمالي، الذي يسير في خط التتريه والابتعاد عن التجسيم(9).

– أن تمكن وجود المذهب الأشعري، بالمغرب العربي، مرتبط ارتباطا وثيقا بالمذهب نفسه، باعتبار أن المذهب الأشعري، لم تكتمل أسسه على يد أبي الحسن الأشعري – رحمه الله –، بل بقي في تطور مستمر على يد من جاء بعده من الأشاعرة.

* الشواهد التاريخية على أصالة المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي:

قال الأستاذ محمد بن محمد العمراوي في رد قول من قال أن المذهب الأشعري غريب عن المغرب العربي:" إنّ ما قاله هؤلاء الأعلام ليس قاطعاً في الموضوع، ولا نصاً في المسألة، وهو في حاجة ماسة إلى تمحيص ونقد، وإني –وإن كنت لست لا في العير ولا في النفير مع أمثال هؤلاء الفحول المبرزين– أرى أن المذهب الأشعري في المغرب قديم قدم المذهب نفسه، والأدلة على ذلك متوافرة والشواهد عليه قائمة جلية، فهاهو ذا أبو الوليد الباجي ت:474هـ وصفه مترجموه بـ "الفقيه المحدث الإمام المتقدم العالم المتكلم، الذي درس أصول الدين على كبير الأشعرية في زمانه القاضي السِّمناني، إذ لازمه في الموصل عاماً كاملاً، فأخذ عنه علم العقليات وبه تخرج في ذلك، كان بارعا في الحديث... وفي علم الكلام ومضايقه، ومن النظار الكبار، وشيخه السمناني أحد أذكياء العالم لازم الباقلاني حتى برع في علم الكلام "(10). وقد ذكر القاضي عياض المالكي – رحمه الله – وهو من علماء الدولة المرابطية وأشعري المذهب، في فهرست شيوخه المسمى بالغنية: عددا من شيوخه كانوا على طريقة أبي الحسن الأشعري، منهم على سبيل المثال لا الحصر، شيخه أبا الحجاج الضرير، الذي قال عنه: "كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظار أهل السنة... وسكن بلدنا مدة وتردد بالأندلس والمغرب وكان آخر المشتغلين بعلم الكلام بالمغرب " (11). هذا ولم يذكر – رحمه الله – وقد عاصر دولة المرابطين، أهم كانوا مجسمة، يعادون الأشاعرة ويضيقون عليهم.

ومما يؤكد أن المذهب الأشعري كان مذهبا معروفا زمن المرابطين ، ما ورد في فتاوى بن رشد الجد جوابا عن سؤال أمير المسلمين بمراكش أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني، يستفسره فيه عن حال أبي الحسن الأشعري، وأبي إسحاق الإسفرايني، وأبي بكر الباقلاني، وأبي بكر بن فورك، وأبي المعالي، وأبي الوليد الباجي، وغيرهم ممن ينتحل علم الكلام، أهم أئمة هدى? فأجاب – رحمه الله – بأنهم أئمة هدى، يجب الاقتداء بهم، وأن الطاعن فيهم، لابد وأن يعزر[12].

وغير خاف على من درس تاريخ دولة المرابطين، أن دولة المرابطين هي بذرة الفقيه عبد الله بن ياسين ت 451ه، الذي كان تلميذا بمنطقة سوس للفقيه وَجَاج بن زلوا اللمطي، فانتدبه أستاذه وجاج بتوصية من أستاذه، فقيه القيروان أبي عمران الفاسي إلى قبائل صنهاجة ولمتونة، يعلمهم ويفقههم، وكان عبد الله بن ياسين القائد الروحي والعسكري لدولة المرابطين[13]، وأبو عمران الفاسي هذا، فقيه مالكي تتلمذ علي أبي الحسن القابسي ت403ه الفقيه المالكي، تلميذ أبي بكر الباقلاني الأشعري، وقد رحل الفاسي إلى المشرق، وتتلمذ بدوره على يد أبي بكر الباقلاني المالكي الأشعري، وهو الذي قال فيه:"لو رآك مالك لسعد بك" وقد خلفه أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي ت 489هـ ،و الذي خلفه في علوم الاعتقادات، تلميذه أبو الحجاج يوسف بن موسى الضرير ت 520هـ شيخ القاضي عياض المالكي – رحمه الله – الجميع[14].

وها هي ذي كتب التراجم والتاريخ، تشهد بأشعرية جمهور علماء المغرب العربي، منذ وقت مبكر جدا، وتؤكد بما لا يدع مجالا للشك، أن المذهب الأشعري ، وإن عرف اكتساحا عاما زمن الدولة الموحدية، على يد مؤسس ابن تومرت – رحمه الله – وهو عالم أشعري بامتياز، فهذا لا يعني أن المذهب الأشعري لم يكن له وجود زمن المرابطين، بل التحقيق أن المذهب الأشعري وإن كان معروفا في الأوساط العلمية زمن المرابطين، إلا أنه لم يكن مذهبا رسميا تتبناه الدولة، لأنه بكل بساطة لم يكن قد تبلور بعد، ولولا هذا التغلل القديم، لما سهل على الموحدين بسط منهج الأشاعرة في تقرير عقيدة السلف، فأشعرية الموحدين نتيجة منطقية وتتويج لأشعرية المرابطين.

3. ثانيا: التعريف بأشاعرة القطر الجزائري وبيان جهودهم في خدمة العقيدة

قال أبو القاسم الحفناوي – رحمه الله – في مقدمة كتابه تعريف الخلف برجال السلف:" الظاهر أن القطر الجزائري، قد اجتهد قديما في طلب العلم بجميع أسبابه، وأتاه من سائر أبوابه، ووقف على معقوله ومنقوله، فتمكن من أصوله وفصوله، وكان لعلوم وقته جامعا، ولرايتها رافعا، مثل أخويه المغربين الأقصى والأدنى[15].

وقال الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الفاسي الجامعي في رحلته:" أما مدينة الجزائر فهي دار الجوهر الفرد في الأدب وعلم النقل والعقل، تنبت العلماء والصالحين كما تنبت السماء البقل، لا تخلو من قراء نجباء، وعلماء أدباء، وأعلام خطباء، مساجدهم بالتدريس معمورة، ومكاتب أطفالهم بالقراء مشحونة ومشهورة"[16].

لقد كان للقطر الجزائري إسهاماته في خدمة العلم، ومشاركة أهله في مختلف الفنون عبر القرون الماضية، يكفي في إثباتها وبيانها، مطالعة كتب التراجم، كنفح الطيب والديباج والبستان وتعريف الخلف، ولعلماء الجزائر على وجه الخصوص مشاركة متميزة، في مجال الدود عن العقيدة الإسلامية على منهج أبي الحسن الشعري، وسأكتفي بذكر بعض الأعلام، وإلا فكثيرون أولئك الذين ألفوا في العقيدة الإسلامية، ولكن كما قيل : يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق و من السوار ما أحاط بالمعصم ، ففي ذكر المشار إليهم وفاء بما كان في الذمة، و رفع للحرج عن باقي الأمة .

1– أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني ت811ه:

ولد العقباني بتلمسان (720هـ/ 1320م)، ولي قضاء: بجاية ومراكش وسالا ووهران وتلمسان، لُمدّة تزيد عن الأربعين عاما، ووصل إلى درجة الاجتهاد المذهبي، وقد توفي –رحمه الله –بتلمسان سنة: 811هـ/1408م[17].

مؤلفاته: للشيخ أبي عثمان سعيد العقباني مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم، أهمها

شرح العقيدة البرهانية لصاحبها السلالجي، هذه العقيدة التي كانت محل اتفاق بين علماء أهل السنة، ومدار الفكر الكلامي الأشعري بالمغرب العربي، بعد مرشدة ابن تومرت، وشكلت مصدرا أساسا من مصادر الفكر الكلامي الأشعري، لرائد التجديد الكلامي الأشعري محمد بن يوسف السنوسي – رحمه الله –[18].

قال محقق شرح العقيدة البرهانية:" ومن تلك الشروح التعليق اللطيف، الذي وضعه الإمام أبو عثمان سعيد العقباني، فقد حاول فيه تقريب مباحث البرهانية للمبتدئين من طلبة العلوم الشرعية، واقتصر على ذكر أصول الاستلالات على العقائد الدينية الإسلامية، حتى إنه لم يشرح بعض الفصول المتعلقة بالإمامة والتوبة، وغيرها مما لم يعتبره في هذا الكتاب من الأصول العقدية[19].

2– ابن مرزوق الحفيد: ت842ه.

أحد الأئمة الأفذاذ، ممن وقع الإجماع على علمهم وفضلهم وصلاحهم شرقا وغربا، ولد – رحمه الله – بتلمسان ليلة الاثنين 14 ربيع الأول عام 766ه، أمه عائشة بنت الفقيه الصالح القاضي أحمد بن الحسن المديوني، وكانت من الصالحات، توفي يوم الخميس عصر 14 شعبان 842هـ ودفن يوم الجمعة بالجامع الأعظم بتلمسان[20].

مؤلفاته: لابن مرزوق من المؤلفات ما لا يمكن عده ولا حصره، أما في العقيدة الإسلامية فله كتاب عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد، قال العلامة التنبكتي واصفًا عقيدة ابن مرزوق: "عقيدته المسماة عقيدة أهل التَّوحيد المُخرجة من ظُلمة التَّقليد، وعلى منحاه بنا السَّنوسي عقيدته الصغرى."[21]، وقد قصد العلامة ابن مرزوق من وضع هذه الرّسالة، بيان القدر الذي ينبغي على المكلَّف تحصيلُه في دلائل الإيمـــان، للخروج من ضِيق التَّقليد فيه، إلى سعة العلم والمعرفة والإيقان.

3– العلامة محمد بن يوسف السنوسي(ت 895ه):

بقيت "مرشدة" ابن تومرت – رحمه الله – و"برهانية" السلالجي – رحمه الله – مهيمنتان على مجالس العلم بالمغرب، أما المرشدة فقد لاقت ما لاقت من انتشار، وقبول بين العامة والخاصة على حد سواء، بفضل رعاية السلطان، فقد كان

ابن تومرت يتولى بنفسه شرحها، وتعليمها باللسانين العربي والأمازيغي، ويأمر بحفظها، أما برهانية السلاليجي فقد كتب لها القبول والرواج في المغرب العربي، وكان لها من التأثير ما يفوق تأثير المرشدة، إلى أن ألف العلامة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني ت 895هـ، مصنفاته في العقيدة الإسلامية على منهج الأشاعرة، فطارت شرقا وغربا وكتب لها من الانتشار، ومن عناية العلماء بها ما يدل على سعة علمه وإخلاصه وتجرده لله، وقد ظلت مصنفاته مرجعا في علم العقيدة إلى عهد قريب(22).

ولد الشيخ السنوسي – رحمه الله – بعد سنة 830ه بحاضرة تلمسان، وقد أخذ أول ما أخذ عن علماء تلمسان، كأبي القاسم الكنباشي البجائي، الذي أخذ عنه كتاب الإرشاد للجويني، والفقيه الجلاب الذي ختم عليه المدونة مرتين، ثم رحل الشيخ السنوسي في طلب العلم، فتتلمذ للشيخ عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر مفخرة علماء الجزائر، وأخذ عن العلامة إبراهيم التازي بوهران(23).

مؤلفاته: للشيخ السنوسي مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم العقلية والنقلية، نخص منها بالذكر تلك التي ألفها في العقيدة الإسلامية:

- ✓ أم البراهين: المعروفة بالعقيدة الصغرى أو السنوسية، وهي رسالة صغيرة الحجم تضمنت مبادئ علم العقيدة ،كُتب لها أن تكون من أكثر المتون شرحا، وكان الشيخ السنوسي أول من شرحها وهو الشرح المعروف بشرح أم البراهين.
- ✓ عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدع عنيد، والمعروفة أيضا بالعقيدة الكبرى، وقد شرحها بنفسه، وسماه عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد.
- ✓ العقيدة الوسطى: المسماة عقيدة أهل التحقيق والتسديد، وقد قام – رحمه الله – بشرحها.
- ✓ عقيدة صغرى الصغرى: الشهيرة بالحفيدة، وهي عقيدة صغيرة، وضعها الشيخ السنوسي لوالد تلميذه الملالي، حين صعب عليه حفظ العقيدة الصغرى، وقام بشرحها.

- ✓ عقيدة صغرى صغرى الصغرى: رسالة صغيرة الحجم لا تتجاوز الصفحة والنصف، بدأها بالحديث عن صفات الله، ما يجب له وما يستحيل عليه والجائز في حقه، ثم الدليل على وجوده، وختمها بالحديث عن الرّسل ما يجب في حقهم وما يجوز وما يستحيل.
- ✓ العقيدة السادسة، وتسمى أيضا عقيدة النساء، وهي التي شرحها الشيخ محمد ابن عرضون ت 1012ه، وسميت في موضع آخر بالعقيدة الوجيزة.

منهج السنوسي – رحمه الله – في مؤلفاته العقدية: كان الشيخ في جميع مؤلفاته العقدية حريصا على إيقاظ العقل وتنبيهه إلى أهمية المعرفة، التي لا تتحقق إلاّ عن طريق النظر، الذي هو مدخل وأساس العقيدة السليمة، وقد أطال الحديث عن هذه المسألة في شروحه، وخاصّة في شرحه على عقيدته الكبرى، وشرحه لأم البراهين، واستدلّ على أهمية النظر بالأدلة النقلية والعقلية، كما ركز – رحمه الله – على الدعوة إلى تجريد العقيدة من علم الكلام الممزوج بالفلسفة، وإرجاع الأمة إلى عقيدة السلف الصحيحة، ولهذا وذاك لم يعرف التاريخ الإسلامي من اشتهرت مؤلفاته في مجال العقيدة، مثل ما اتفق للشيخ محمد السنوسي، إذ أضحت مؤلفاته، قطب الرحى في المرجعية الجديدة للفكر العقدي بالمغرب العربي، ومهوى أفئدة أتباع مدرسة السنوسي الكلامية، فانهالت عليها الشروح والحواشي والتقريرات، وفوق هذا كله شكلت المقولات الكلامية للشيخ السنوسي، العقيدة الرسمية التي تدرس في المعاهد والزوايا والمساجد، جنبا إلى جنب الفقه المالكي، في انسجام وتنناسق.

3– ابن زكري التلمساني (ت 910ه):

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري المغراوي المالكي، لقب بشيخ الإسلام والحافظ، ولد بمدينة تلمسان ما بين عامي 820هـ و 827هـ، وتوفي أبوه وتركه يتيما صغيرا فكفلته أمه، وتعلم الحياكة، فاستؤجر للعمل بنصف دينار في الشهر، فرآه العلامة ابن زاغو، فأعجبه ذكاؤه، فسأله عن ولي أمره فقال أمي، فذهب إليها وتعهد بأن يعطيها في كل شهر نصف دينار وأن يفقه ولدها ويؤدبه، فرضيت، واستمر إلى أن نبغ واشتهر(24).

مؤلفاته: تنوعت تآليفه – رحمه الله –، حيث صنف في أصول الدين،

وأصول الفقه، والحديث، والفقه، كما كانت له فتاوى، ومراسلات مع علماء عصره، من مؤلفاته في العقيدة الإسلامية، والتي نهج فيها ابن زكري منهج الأشاعرة في التعاطي مع المسائل العقدية منها:

* محصل المقاصد مما به تعتبر العقائد: وهو نظم كبير في علم الكلام الشعري، يتألف من 1500 بيتا وزيادة، لم يتعرض له العلماء بالشرح في البداية، ويبدو أنّ ذلك لصعوبته وعلو شأنه، حتى أن الشيخ محمد بن يوسف اعتذر عن شرحه، ثم بعد ذلك انهالت عليه الشروح، منها شرح سيدي الحسين محمد السعيد الشريف الورثيلاني[25]. قال ابن زكري – رحمه الله – في بعض مواضعه:

فصل أبو الحسن الأشعري *** واضع العلم ذا لعلم هو المرضي

بكتبه الموافق الرسول *** فخص بالسنة والقبول

لقب تابعوه بالأشاعرة *** وهو بالشيخ اتبع مؤازره

* بغية الطالب شرح عقيدة ابن الحاجب: قال محقق الكتاب:لاسبق وأن ذكرنا أن المؤلف لم يبوب كتابه، بل تتبع فقرات العقيدة المشروحة، مما أدى إلى تكرار بعض المواضع، فمثلا الإيمان تعرض له المؤلف أكثر من مرة، إلا أنه من حلال دراسة فصول كتابه يتضح انه وضع لنفسه منهجا خاصا تظهر معالمه فيما يلي:

– عرض فصول الكتاب عرضا وافيا يبدأ كل فصل بمقدمة شاملة، وكل موضوع بذكر مناسبته لما قبله.

– يلتزم المؤلف في شرحه بالعقيدة الأشعرية، وذلك يظهر جليا عند تعرضه للمسائل الخلافية، حيث يرد الآراء المخالفة، ويثبت رأي الأشاعرة، الذي يطلق عليهم أحيانا رأي اهل الحق، او رأي اهل السنة، أو رأي السلف.

– يعطي لأدلة العقل اهتماما كبيرا.

– قوة الأدلة النقلية التي يستدل بها، فزيادة على أدلته من الكتاب نراه يحرص على الاستشهاد بالأحاديث الصحيحة، مع حرصه على ذكر الإجماع كلما أمكن ذلك، كما أنه يعطي أهمية خاصة لآراء كبار الأئمة مثل الأشعري، الجويني، الرازي، الآمدي[26].

4- المقري (ت 1041هـ):

هو أبو العباس أحمد بن محمد أحمد بن يحيى بن عبد الرحمان بن أبي العيش بن محمد المقري، ولد أحمد المقري سنة 986 هـ بمدينة تلمسان، وتوفي في شهر جمادى الثانية سنة 1041هـ - 1632م بمصر، بعد زيارة قام بها لإسطنبول، ودفن رحمه الله بمقبرة المجاورين بالقاهرة [27].

مؤلفاته: للمقري مؤلفات كثيرة في مختلف الفنون، ولعل أبرزها نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، هو أضخم ما خلفه الإمام المقري في مجال التاريخ والأدب، أما في علم الكلام فللمقري أرجوزة في علم الكلام على مذهب الأشعري موسومة ب: إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة وهي: منظومة في العقيدة الأشعرية، أولها:

يقول أحمد الفقير المقري * المغربي المالكي الأشعــري

قال عنها الإمام عبد الغني النابلسي في شرحه عليها، والمسمى برائحة الجنة في عقائد أهل السنة:" العقيدة المنظومة، والعقيلة المعصومة، واللؤلؤة المكنونة، والجوهرة المخزونة، فريدة التوحيد، وخريدة التمجيد، منظومة العلامة، والعمدة الفهامة، سيد العلماء العاملين، وإمام الفقهاء والمحدثين، شيخ مشايخنا المرحوم أحمد المقري المغربي [28].

6- ابن بو جمعة المغراوي الوهراني (ت 929هـ):

هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن حمد بن بوجمعة المغراوي الوهراني الفاسي، ولد بوهران سنة 879ه، وتوفي سنة 929ه بفاس بعد أن انتقل إليها هو وأبيه بعد غارات الإسبان عليها[29].

مؤلفاته: من مؤلفاته في العقيدة الإسلامية كتاب الجيش والكمين لقتال من كفر عامة المسلمين، والكتاب جاء جوابا كما ذكر الوهراني، عن مسألة إيمان المقلد في العقائد، ومن لا يعرف الأدلة والبراهين، وينزه الله ورسوله وينطق بالشهادتين، من غير زيادة على ذلك، هل إيمانه صحيح أم هو كافر وإيمانه فاسد؟ ومسألة أخرى تتعلق بمن يعرف الله تعالى حيا باقيا، ويحيي ويميت ويغني ويفقر، ولا يعرف في ذلك دليلا ولا برهانا، هل إيمانه صحيح وهل تصح إمامته وشهادته؟ إلى غير ذلك مما

تعلق بعقائد المقلدة من عامة المسلمين[30].

7- أحمد بن قاسم البوني (ت1139ه):

هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد ساسي التميمي البوني، وُلد ببونة المعروفة الآن بعنابة في شرقي الجزائر سنة 1063ه 1653م، وتوفى فيها سنة 1139ه 1726م، نشأ في أسرة ميسورة الحال، فقد كانت عائلتُه تنتمي إلى مجموعة بشرية واسعة مُمتدّة غرباً إلى نواحي قسنطينة، وشرقاً إلى نواحي الكاف وباجة، حيث أخذ أحمد بن قاسم العلم من هذه النواحي[31].

مؤلفاته في العقيدة: النور الضاوي على عقيدة الطحاوي-نظم عقيدة الرسالة – نظم عقيدة ابن الحاجب- النفحة المسكية في نظم العقيدة السبكية.

7- محمد بن أحمد بن الهاشمي بن عبد الرحمن التلمساني (ت 1381هـ):

ولد محمد بن الهاشمي من أبوين صالحين، يوم السبت 22 شوال 1298 هـ الموافق 16 أيلول 1881م، في مدينة سبدو التابعة لمدينة تلمسان فيها، هاجر في 20 رمضان سنة 1329 هـ مع شيخه محمد بن يلس إلى بلاد الشام هرباً من الاستعمار الفرنسي، فمكثا في دمشق أياماً، وعملت الحكومة التركية على تفريق جميع المغاربة الجزائريين، وكان نصيبه أن ذهب إلى تركيا وأقام في أضنة، وبقي شيخه ابن يلس في دمشق، وعاد بعد سنتين إلى دمشق، من شيوخه بالشام شيخ المحدثين بدر الدين الحسني والشيخ أمين سويد، توفي محمد الهاشمي التلمساني يوم الثلاثاء 12 رجب 1381 هـ الموافق 19 كانون الأول 1961م، وصُلي عليه في الجامع الأموي، ليدفن في مقبرة الدحداح في دمشق وكانت وصيته في آخر حياته: "عليكم بالكتاب والسنة"[32].

مؤلفاته: من مؤلفاته في العقيدة الإسلامية مفتاح الجنة شرح عقيدة أهل السنة – الرسالة الموسومة بعقيدة أهل السنة مع نظمها- البحث الجامع والبرق اللامع والغيث الهامع فيما يتعلق بالصنعة والصانع-الرسالة الموسومة بسبيل السعادة في معنى كلمتي الشهادة مع نظمها الدرة البهية.

8- الشيخ محمد العربي بن التباني السطيفي الجزائري (ت 1390هـ):

هو الإمام العالم العلامة المشارك في كل الفنون، ولد بقرية (الشلخة) أولاد

عبد الواحد ناحية رأس الوادي من أعمال سطيف شرق القطر الجزائري سنة عام 1315ه/1898م، له عدة أسماء مستعارة لعل أشهرها هو أبو حامد مرزوق، الذي أخرج به كتبه الثلاث: براءة الأشعريِّين من عقائد المخالفين- والتعقب المفيد على هدي الزَّرعي الشديد- والنقد المحكم الموزون لكتاب الحديث والمحدثون، وسمَّاه البعض بإمام الحرمين، كما لُقِّب بخادم العلم بأمِّ القُرى، وخاتمة اعتقاد أهل الإيمان وألقاب أخرى كثيرة، انتقل - رحمه الله - إلى الحجاز أثناء الحرب العالمية ومكث به مدرسا بالحرم، وفي عام 1343ه- 1924م قام برحلة إلى أندونيسيا ومرَّ في طريقه بملايا وقابل السلطان اسكندر شاه ابن السلطان إدريس شاه، فأكرمه وشمله بعطفه وإحسانه تقديرًا لعلمه ومكانته، توفي - رحمه الله - سنة 1390ه الموافق لـ 3 جوان 1970م، من تلاميذه العلامة محمد بن علوي بن عباس المالكي[33].

مؤلفاته: لعل من أبرز مؤلفات الشيع العربي التباني السطايفي كتابه براءة الأشعريين، وهو كتاب شكك البعض في نسبته إليه، ويكفي أن تلميذه الشيخ محدث الحرمين العلامة علوي بن عباس مالكي جزم بنسبته إليه.

9- محمد بن محمد بن عبد الرحمن الديسي (ت 1921م -1339هـ):

ولد - رحمه الله - سنة 1270هـ/ 1854م بقرية الديس، القريبة من هذه المدينة الواقعة بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر، و بها نشأ و تربى يتيما، فحفظ القرآن الكريم، ثم انكب على حفظ متون العلم، المتداولة يومئذ بين طلبة الزوايا والمشهور تدريسها بجامعي الزيتونة والأزهر، حتى استوعب في صدره ما يقرب من نحو الخمسين متنا في فنون مختلفة، ثم التحق بزاوية الشيخ سعيد بن أبي داود القائمة بآقبو، ثم انتقل منها إلى زاوية الهامل القريبة من بوسعادة والديس حيث مسقط رأسه، فاتصل بشيخها ومؤسسها الفقيه الصوفي الكبير الشيخ محمد بن أبي القاسم الشريف الهاملي، ولازمه ملازمة طويلة، توفي - رحمه الله - سنة يوم السبت: 22 ذي الحجة 1339ه/17 أوت 1921م بزاوية الهامل ببوسعادة[34].

مؤلفاته: كتب - رحمه الله - في العقيدة الإسلامية على مذهب الإمام الأشعري منافحا عنه ومؤيدا له، منظومته العقيدة الفريدة، التي قام بشرحها الشيخ الكافي التونسي، وقد طبع النظم والشرح بتونس، وله أيضا رسالة عقيدة الخلان

ونصيحة الإخوان، والكلمات الشافية في شرح العقيدة الشعيبية الكافية، وهو شرح لمنظومة القاضي شعيب التلمساني في العقائد على مذهب الأشعري[35].

4. خصوصيات المذهب الأشعري بالمغرب الأوسط :

✓ إن أهم ما يميز مجهودات أشاعرة القطر الجزائري خاصة، وأقطار المغرب العربي عامة، تبسيط مضامين العقيدة الإسلامية المقررة بمنهج الأشاعرة، وقد كان هؤلاء شديدي الحرص على اختصار المقولات الكلامية الأشعرية، ونظمها في أراجيز، حتى يسهل حفظها على العامة، وقد بدا هذا المنهج واضحا في مرشدة ابن تومرت، وبرهانية السلاليجي، ومن جاء بعدهما من العلماء كالإمام السنوسي – رحمه الله –، وغيره ممن انكبوا على شرح مؤلفاته، وجدير بالذكر أن مختصرات العقيدة الإسلامية، ظلت تدرس للعامة لعدة قرون، ولازالت إلى يومنا هذا تعقد المجالس في المساجد والزوايا لتدريس أم البراهين للسنوسي – رحمه الله – وهي حلق علمية يحرص على حضورها عامة الناس، ناهيك عن مدى اعتناء العامة باستظهارها.

✓ لم تختلط مباحث العقيدة الإسلامية المقررة على طريقة أبي الحسن الأشعري بالمقولات الفلسفية والجدلية والمنطقية، مما كان له أثره في ترسيخها في نفوس العامة، وفي النأي بها عن السجالات العلمية، وقد ساعد على هذا الأمر، خلو البيئة الجزائرية من الفرق والطوائف المخالفة، والتيارات الإلحادية.

✓ حرص علماء القطر الجزائري على تأكيد وجوب النظر، ونبذ التقليد في مسائل الاعتقاد، وقد جرت بين علماء القطر الجزائري مساجلات علمية في بحث صحة إيمان المقلد، وكتب السنوسي – رحمه الله – خير شاهد على ذلك، ويكفي أن ابن بوجمعة الوهراني المغراوي خص هذه المسألة بتأليف سماه الجيش والكمين.

✓ ارتبط المذهب الأشعري بالمذهب المالكي ارتباطا وثيقا، بحيث يستحيل فك خيوط هذا التداخل، إذ لا يمكن تفسيره إلا بكون الإمام أبي الحسن الأشعري في نظر المالكية ممثلا للاتجاه السني، فهو – رحمه الله – لم يبتدع عقيدة، وإنما ابتدع منهجا يقرر به عقيدة السلف وهي عقيدة مالك – رحمه الله –، وقد ساعد على تعزيز هذا الاعتقاد ، اعتناء كبار مالكية المشرق بمنهج أبي الحسن الأشعري،

كالقاضي عبد الوهاب المالكي، وأبي ذر الهروي، وأبي بكر الباقلاني، وغيرهم من شيوخ المالكية، فإذا كان هؤلاء على منهج الإمام الأشعري في تقرير العقيدة الإسلامية، فهي عقيدة أهل السنة والجماعة، فمن الطبيعي أن يسير على طريقتهم مالكية المغرب العربي، وقد تتلمذوا عليهم.

وقد عبر عبد الواحد ابن عاشر (ت: 1040هـ) عن هذا المعنى في منظومته المرشد المعين بقوله :

في عقد الأشعري وفقه مالك *** وفي طريقة الجنيد السالك

5. الخاتمة:

إن أعلام القطر الجزائري قديما وحديثا، والذين كانت لهم عناية بالعقيدة الإسلامية، هم من الكثرة بحيث يتعذر إحصاؤهم في هذه العجالة، إلا أن الملاحظ أنهم لم يخرجوا عن طريقة أبي الحسن الأشعري، فيما بدلوه من مجهودات جبارة في سبيل ترسيخ العقيدة الإسلامية، و نشر مبادئها بين العامة، وقد نجح هؤلاء الأعلام بفضل منهج الأشاعرة في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، في الحفاظ على الهوية الإسلامية للجزائريين، أمام محاولات الاستدمار الفرنسي المتعددة، إن أم البراهين للشيخ السنوسي – رحمه الله – فعلت في الاستدمار الفرنسي ما عجزت عنه الجيوش الجرارة، فقد ظلت هذه العقيدة ببساطتها وعمقها وبعدها الروحي والسلوكي، حصنا منيعا يلود به الجزائريون من تلك الحملات التبشيرية، التي حاول فيه الآباء البيض نشر مسيحيتهم الكاذبة في ربوع القطر الجزائر، إن فرنسا الاستعمارية وإن طال بقاؤها في ربوع القطر الجزائري من سنة 1830ه إلى سنة 1962م، إلا أنها ظلت جسما غريبا وورما خبيثا، لابد وان يجتث إن بكيفية أو بأخرى، فاندلعت ثورات شعبية عديدة كان روادها خريجي الزوايا والمدارس القرآنية، التي كان لا تخرج في مقرارتها الدراسية عن أم البراهين وغيرها من متون العقيدة الإسلامية على طريقة أبي الحسن الأشعري[36]، فدونك بن زعمون والدرقاوي والأمير عبد القادر والشيخ بوعمامة، وغيرهم كثيرون.

فيا ليت شعري ماذا الذي تنفر منه القلوب عنهم – يعني الأشاعرة – أم ماذا ينقم أرباب البدع منهم؟! أغزارة العلم، أم رجاحة الفهم، أم اعتقاد التوحيد

والتتريه، أم اجتناب القول بالتجسيم والتشبيه، أم القـــول بإثبـــات الصفـــات، أم تقديس الـــرب عن الأعضـــاء والأدوات؟!... وأكثر العلماء في جميع الأقطار عليه – يعني مذهب الأشاعرة – وأئمة الأمصار في سائر الأعصار يدعون إليه، ومنتحلوه هم الذين عليهم مدار الأحكام، وإليهم يرجع في معرفة الحلال والحرام، وهم الذين يُفتون الناس في صعاب المسائل، ويعتمد عليهم الخلق في إيضاح المشكلات والنوازل، وهل من الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية إلا موافق له أو منتسب إليه أو راضٍ بحميد سعيه في دين الله أو مُثنٍ بكثرة العلم عليه[37].

لقد أسهمت الأشعرية رفقة المذهب المالكي، والتصوف السني في خلق انسجام مذهبي وعقدي في القطر الجزائري، جنبه كثيرا من القلاقل والفتن، ومكنه من رد الغزاة ودحرهم وإخراجهم من أرض الجزائر، لقد شكل المذهب الأشعري والمذهب المالكي، ولعدة قرون جزءا لا يتجزأ من الوعي الجماعي للجزائريين، فقد لا يدرك الكثير من العامة أصول منهج الأشاعرة في التعاطي مع العقيدة، لكنه على وعي تام بمضامين المقولات الأشعرية، اللهم إلا ما حدث في العقود الأخيرة من هجمات ممنهجة، القصد منها النيل من هذا الاتجاه السني الوسطي، كان من نتائجها الحتمية بروز اتجاهات تكفيرية شكلت معاول هدم للأمة الإسلامية في أيدي أعدائها، مما يستوجب السعي الحثيث لرد الاعتبار للاتجاه الأشعري والماتريدي، في إطار مسلك تجديدي يحدد معالمه النخبة من أهل الاختصاص.

6. الهوامش:

(1) قال المايرقي:" ولم يكن أبو الحسن أول من تكلم بلسان أهل السنة، إنما جرى على سنن غيره، وعلى نصرة مذهب معروف، فزاد المذهب حجة وبيانا، ولم يبتدع مقالة اخترعها، ولا مذهبا انفرد به، ألا ترى أن مذهب أهل المدينة نسب إلى مالك، ومن كان على مذهب أهل المدينة يقال له مالكي، ومالك إنما جرى على سنن من كان قبله، وكان كثير الاتباع لهم، إلا أنه لما زاد المذهب بيانا وسطوعا عزي إليه، كذلك أبو الحسن الأشعري، لا فرق، ليس له في مذهب السلف أكثر من بسطه وشرحه وتواليفه في تصرته." السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،367/3.

(2) الفاضل بن عاشور، أعلام الفكر الإسلامي، ص 10.

(3) القاضي عياض، ترتيب المدارك ص15.

(4) قال صاحب الجوهرة: كل نص أوهم التشبيها * أوله أو فض ورم تنزيها.

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء: 550/19.

(6) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي ص 121،102.

(7) إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب العربي، ص5.

(8) المبارك الميلي، تاريخ الزائر في القديم والحديث 338/2.

(9) محمود محمد خطاب السبكي، إتحاف الكائنات ببيان مذهب السلف والخلف في المتشابهات ص7.

(10) منهج القاضي أبي بكر بن العربي في الاعتقاد، بن محمَّد العربي العمراوي السجلماسي، ص:9.

(11) الغنية، القاضي عياض المالكي ص 226.

(12) نظر نص الفتوى كاملة في كتاب فتاوى ابن رشد 802/2-805.

(13) عبد المجيد النجار، تجربة المهدي بن تومرت الإصلاحية، ص46.

(14) الأستاذ يوسف احنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ص79، الغنية، القاضي عياض المالكي ص 226.

(15) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ص2.

(16) المصدر السابق، ص 409

(17) ابن مريم، بستان العارفين، ص106، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص250.

(18) د/ جمال علال البختي، عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية ص 103.

(19) نزار حمادي محقق شرح العقيدة البرهانية العقباني ص7.

(20) ابن مريم، بستان العارفين، ص 201.

(21) التنبكتي، نيل الابتهاج: ص 507.

(22) عبد المجيد النجار المهدي وتجربته الإصلاحي ص450، الدكتور جمال علال البختي، عثمان السلالجي ومذهبيته، ص103.

(23) الحفناوي، تعريف الخلف بالسلف ص186.

(24) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 85/1، الحفناوي، تعريف الخلف بالسلف ص42.

(25) كلام محقق بغية الطالب شرح عقيدة بن الحاجب، ص59.

(26) كلام محقق بغية الطالب شرح عقيدة بن الحاجب ص128.

(27) عادل نويهض، معجم أعلام الجزئر، ص 309. الحفناوي، تعريف الخلف بالسلف ص44.

(28) عبد الغاني النابلسي، رائحة الجنة في عقائد أهل السنة ص 7.

(29) يوسف عدار، محمد بن أبي جمعة الوهراني، مجلة التراث العربي ص 56.

(30) بن بوجمعة المغراوي، الجيش والكمين لقتال من كفر عامة المسلمين، ص17.

(31) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص49.

(32) عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص 347.http://www.arej.net

(33) الجواهر الحسان في تراجم الفضلاء والأعيان من أساتذة وخلان، 263/1، ملتقى الشؤون الدينية حول الاجتهاد والتجديد، الشيخ العربي التباني السطايفي الجزائري، جانفي 2013.

(34) الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ص 399.أ°لام الجزائر، عادل نويهض، ص142.

(35) المصدران السابقان.

(36) أبو يعلى الزواوي، تاريخ الزواوة، ص 155.

(37) ابن عساكر، تبيين كذب المفتري، ص271.